السر[1]

أو

الشاعر فى وادى الموتى

بقلم سيد قطب
المدرس بالمدارس الأميرية

اعتاد الشاعر أن يتردد كثيراً على وادى الموتى فى أوقات مختلفة ، أكثر ما تكون عند مغرب الشمس وقبل طلوعها .

وهو يجد فى هذه الزيارات لذة غريبة ، كما يجد مجالا لتأملات غير محدودة ، ولكنها تثير فيه الشوق لمعاودتها كرة أخرى .

وفى مرة منذ ستة أعوام ؛ أرق فى الهزيع الثانى ، فجال بخاطره أن يلجأ إلى حمى الموتى ، مدفوعا بشعور غامض ، لا يبالى وحشة مثل هذه الأماكن ، فى جنح الليل المدلهم .

وسار خطوات ، ولكنه أحس بالرهبة ؛ وساوره الوجل ، وشعر كأن أصواتاً من وراء الحفائر تتناجى ، ثم توجه إليه الخطاب .

ليس للشعر يد فى هذا التصوير ؛ فهو الحقيقة التى أحسها ، كما يسمع الصوت ، وكما ينظر المرئيات .

---

(١) إحدى قصائد (الشاطىء المجهول) وهو ديوان الشاعر . الذى صدر فى أول يوم فى العيد

وقد عاد صامتًا واجمًا ، وبعد أن ذهب عنه الروع ، حاول أن يفسر عن طريق « الوعى والتأمل » ما دفعه لهذه الرحلة ، وما شعر به فى أعماق نفسه .

ولقد ظل يعجز عن ذلك ، كلما حاوله ؛ مدى ستة أعوام ، حتى استطاع فى هذا العام ، أن يترجم هذا الشعور شعرًا ؛ بعد أن فقد كثيراً من روعته ، ووصل إلى الدرجة ، التى يستطاع التعبير عنها .

* * *

مَن الطارقُ السارى خلال المقابر ... كخفقة روح فى الدُّجُنّات عابر ؟
مَن الوَجِلُ المذعورُ فى وحشة الدجى ... تقلّبه الأوهام فى كل خاطر ؟
ينقِّل فى تلك الدياجير خَطْوَهُ ... ويخطر فى همسٍ كهمس المُحاذر
وقد سكنتْ من حوله كلُّ نأمة ... سوى قلبه الخفّاق بين الدياجر
وغشّاه رَوْعُ [الموت[1]] والموت روعة ... تُغَشِّى ، فيعنوا كل نِكْسٍ وقادر

* * *

هو الشاعرُ الملهوفُ للحق والهدى ... وللسرّ لم يكشفه ضوءٌ لناظر
تحيّر فى سرّ الحياة وما اهتدى ... إليه ولم يقنع بتلك الظواهر
وساءل عنه الكونَ ، والكونُ حائر ... يسير كمعصوب بأيدى المقادر
وساءل عنه الموتَ والموتُ سادر ... وساءل عنه الشعرَ فى حنق ثائر
وساءل عنه كلَّ شىء فلم يفز ... بشىء ولم يرجع بصفقة ظافر

* * *

(١) لعل الشاعر قد أنسى هذه الكلمة فزدناها لسلامة الوزن والمعنى (المجلة) .

أفى هذه الأجداث طِلَّسْمُ سِرّه ؟ لعل ، فمن يدرى بسر المقابر ؟ !
ألم يخلع الموتى الأحابيلَ كلَّها أحابيلَ أوهامِ الحياة الجوائر ؟
ألم يتركوا الدنيا الغرورَ لأهلها ويستوثقوا مما وراء المصائر ؟
ألا تهمسُ الأرواحُ بالسر إن سَرَى إليها ألا تُهدى اليقينَ لحائر ؟
أجل ، ربما تُعطي الجواب لسائل وربّما تجلو المصير لشاعر

* * *

وفيما يناجى فى حمى الصمت نفسَه تسمّعَ همساً من خلال الحفائر:
« من الطارقُ السّاري خلال المقابر فأقلق منا كلَّ غافٍ وساهر ؟ »
« أما يقنع الأحياء بالرحب كله أياويح للأحياء صرعى المظاهر ! »
« تركنا لهم دنياهمُ وديارهم ولم يدعونا فى حمًى غيرِ عامر ! »

* * *

وقالَ فتًى منهم حديثٌ قدومُه بنغمةِ إشفاق ونبرة ساخر :
« لعل الذى قد دبّ فى ذلك الحمى وأيقظ فى أحشائه كل سادر »
« أخو صبوة يهفو إلى قبر ميتةٍ له عنده وجد ، وتحنان ذاكر »
« يُقرّبُه منها التذكر والهوى وتبعده عنها غِلاظ الستائر »
« وما أخدعَ الحبّ الذى فى ديارهم يُغشّى على أبصارهم والبصائر »

* * *

وقالت لهم أمٌّ وفى صوتها أسًى ونبرةُ تحنانٍ وكتمانُ صابر :
« ألا ربّما كانت ثكولا حزينة على فلذةٍ من قلبها المتناثر »
« وربّما كانت عجوزاً تأيّمتْ وضاقت بدهر ناضب العَوْن غادر »

* * *

وقد ذهبوا فى حَدْسهم كلَّ مذهب وفيما حوَتْهُ نفسه من مشاعر
فجلجل صوت من مُسِنٍّ كأنما هو الدهر فى صوتٍ من الرَّوْعِ ظاهر:
« من الطارق السارى خلال المقابر فأقلق منا كل غاف وساهر ؟ »

* * *

فقال أخو الأحياء والقلب خافق مِنَ الوَجَلِ الأخّاذ فى صوت حاسر:
« أنا الحىُّ لمّا يدر أسبابَ خلقه أنا المدلج الحيران بين الخواطر »
« دلفتُ إلى وادى المنـايا لعلني أفوز بسرٍّ فى حناياه غائر »
« أما تعلمون السرَّ فى خَلْقِ عالَمٍ يموت ويحيا بين حين وآخر ؟ »
« وتكنفه الأحداثُ من كل جانب ويركب للغايات شتَّى المخاطر »
« وليس له من غاية غير أنه مسوقٌ إلى تحقيق رغبة قاهر »
« ضنينٍ بما يبغيه ليس يُبيحه لسائله عما وراء الظواهر »
« وماذا لقيتم بعد ما قد خلعتمُ قيودَ الليالى الخادعات المواكر ؟ »
« وماذا وراء الغيب والغيبُ مُطبَق وهل يتجلّى مرة للنواظر ؟ »
« سؤال أخى شوق وقد طال شوقه وحيرته بين الشكوك الكوافر »

* * *

أرَيْتَ لَوَ انّ الهولَ صُوِّر منظراً تجالُه الأخطارُ جدّ غوامر ؟
كذلك ساد الصمتُ بين الحفائر وران على أرواحهم والضمائر
وأذهل هاتيك النفوسَ تخفّضت من البُهر والإعياء دقّات طافر
وجلجل صوت الشيخ دوّى كأنه يحدّث من كونٍ قصىّ المعابر :
« أياويلها تلك الحياةُ وأهلُها تُكشِّفُ عن بلوائها كلَّ ساتر »

« وتطلبُ أسبابَ الشقاء لنفسها فتضرب فى تيه من الشك غامر »
« وتسأل عن سرّ وليست بحاجة إلى السر تشريه بأنفس حاضر »
« لقد أغمض الموتُ الرحيمُ جفونَنا وهدّأ فى أفكارنا كل نافر »
« نسينا سؤالا لم يزل كل كائن يردده حيرانَ فى حَزْر حازر »
« نسيناه فارتحنا من الحيرة التى خسرنا بها الأعمار جِدّ نواضر »
« وهأنت ذا تُذْكيه . يالك جائراً ويالك مخدوعاً بسر المقابر ! »
« وهانحن ودَّعْنا هدوءا وهينَة شريناهما بالعمر ، يا للخسائر ! »

* * *

أريت لو ان الهول صُوِّر منظراً تجلله الأخطار جد غوامر ؟
كذلك ساد السمت بين الحفائر وران على أرواحهم والضمائر
وأذهل هاتيك النفوس فخفضت من البهر والإعياء دقات طافر

* * *

وعاد أخو الأحياء يعطو بحسرة ولهفة محروم وإعياء خائر
لقد كان فى الموتى ، وفى الموت مأمل يعلله بالكشف عن كل ضامر
فأنى سراباً ثم لا ينقع الصدى فواندما عن بحثه المتواتر !
فقد كان خيراً أن يعيش على المنى ويأمل بعد الموت كشف الستائر
ويا ليت هذا الموت يسرع خطوه فيطوىَ حيّا عمره ربح خاسر